ملخص محاضرة :

الفن الفارسى

للشاعر الانكليزى Lawrence Binyon

« وفد على مصر فى هذه الأيام الشاعر الانكليزى المشهور مستر لورنس بنيون أمين القسم الشرقى بالمتحف البريطانى ، وألقى أربع محاضرات تناول فيها أغراضاً مختلفة فى الفن والأدب ، وهذه أولى محاضراته عن الفن الفارسى »

إن الكلام عن الفن الفارسى يستوجب من المحاضر أن يلم فى بادئ الأمر بالموقع الجغرافى الذى كان له أثر لاينكر فى توجيه الرسم الفارسى ناحية خاصة ، يلاحظها كل من له اهتمام به وتعلق بدراسته ، وإن وقوع فارس بالقرب من بلاد العرب وتوسطها بينها وبين بلدان الشرق الأقصى صبغ الفن الفارسى بصبغة خاصة وإن ظل مع ذلك محتفظاً بروحه القوية ، وشخصيته البارزة التى تميزه تميزاً واضحاً جلياً من فنون الأمم الأخرى سواء أكانت غربية أم شرقية ، فلهذا الفن مميزاته الخاصة وروحه المستمدة من صميم الواقع

وكما أن للظروف الجغرافية تأثيراً ، كذلك للظروف السياسية أثراً لا يمكن للباحث أن يتجاهله أو ينكره ، فقد تغلبت على هذه البلاد عدة دول حاكمة كالأغريق فى القديم والساسان والمسلمين ، وكانت الدولة الساسانية آخر الدول الفارسية التى حكمت إيران ، والتى توطد لها العرش زهاء أربعة قرون منذ القرن الثالث حتى السابع الميلادى ، إذ ظهرت قبل ذلك بقليل دولة الاسلام الفتية ، فاكتسحت مافى طريقها ، وخفق علم الاسلام على كثير من ربوع العالم ، ولما كانت فارس قريبة من بلاد العرب فقد اتجهت اليها أنظارهم بطبيعة الحال والموقع ، ولم يلبث العرب أن خضدوا شوكة دولة بني ساسان واستتبت أقدامهم فيها ، كما أخذ الدين ينتشر فى ربوعها ، ومن ثم أخذ الفن الفارسى من رسم الى تصوير الى شعر يتأثر بعض الشىء بهذه الظروف الجديدة التى أحاطت به ، وربما كان ذلك أوضح فى الشعر منه فى الرسم والتصوير

وهنا نرى لزاماً علينا أن نشير الى أن العرب حين غزوا هذه البلاد كانت هناك نهضة فنية ، تدلنا على ذلك تلك الآثار التى أماطت اللثام عنها بعثة ألمانية ، إذ عثرت على كثير من هذه الرسوم فى بلاد الأفغان ، وأقدم هذه اللوحات بوذية ، ولكنها على درجة عالية من الأتقان

وقد قامت فى ذلك الحين مدرسة فنية فى بغداد التى كانت مركزاً ثقافياً إسلامياً مهماً ، وإذ كان العرب قد نشروا سلطانهم على هذه الربوع ، فقد أدوا للفن خدمة كبرى بأن كانوا وسيطاً قوياً فى نقل الروح الغربية الى الشرق ، وتطعيم الفن الفارسى بالفن العربى ، وذلك بأن العرب اتصلوا اتصالاً مباشراً بالأمم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتعاملوا معها فى جميع مرافق الحياة . وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فلا بد لنا من أن نشير إلى أن أثر الفن الصينى كان أقوى من تأثير الفن الأوربى فى التصوير الفارسى ، وإن المقارنة بين الفنين الصينى والفارسى لتُظهر لنا هذا أجلى من المقارنة بين الثانى والغربى ؛ وكان الاختلاط فى أول الأمر قليلاً ، ولكن الظروف المحيطة غيرت الأمر الواقع ، وزادت الصلات توثقاً ، إذ ظهرت دولة المغول ، وهم من الجنس الأصفر تحت زعامة القائد المعروف تيمورلنك ، فاتصلت البلاد الصينية بربوع الشرق الأدنى ، وأصبحت هذه البلاد جميعاً أكثر ارتباطاً من ذى قبل . وهنا كان عصر ازدهار وقوة للفن الفارسى !

عليه بفضة تساوى وزن الفيل ، وبعد وفاة قطب الدين تولى الأمر نصير الدين خلجى لمدة أقل من سنة ، ثم انتقل الأمر من الأسرة الخلجية إلى الأسرة التغلقية ، وكان أول ملوكها غياث الدين تغلق فاتصل به خسرو وصنف له « تغلق نامه » أى كتاب تغلق فى سنة ٧٢٥ هجرية وهو آخر تصانيف خسرو لأنه مات فى تلك السنة

عاش خسرو ٧٣ سنة وصنف ٩٩ كتاباً أكثرها فى الشعر باللغة الفارسية والهندية ضاع جلها إلا القليل ، وعاش عشرة ملوك ، وإن لم تجاوز مدة بعض منهم سنة ، بينهم ملوك الأسرة الخلجية الكاملة ؛ وكان خسرو عالماً فاضلاً وشاعراً مفلقاً ، وموسيقياً بارعاً ، وصوفياً كبيراً . وسنتكلم عن نبوغه فى الشعر والموسيقى والتصوف فى المقال الآتى إن شاء الله ؟

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

ذلك بأنّ الفنّانين الفارسيين حين شاهدوا آثار المصورين الصينيين أعجبتهم هـذه البراعة الفائقة والدّقة المتناهية فى إبراز العواطف والمناظر المختلفة فى صور محسوسة تسترعى الانتباه ، وتشهد لهم بالعبقرية والفنّ ، إذ كانت هـذه الرسوم تستلزم التفكير الدقيق فى كيفيّة تهيئتها وإبرازها على هذا النحو العجيب ، ومن ثمّ بدأوا يجارونهم وينهجون سبلهم ، ويترسمون آثارهم وقواعدهم ، ورأوا أنّ إبراز الاحساس بالواقع عنـد الصُّوَر أكثر مما عندهم ، كما شاهدوا الدقة العظيمة والمقدرة الرائعة فى تجسيم كل ما تقع عليه العين فى صورة جذّابة ، كما أنهم لم ينسوا أن يستلهموا الطبيعة صوراً ويستمدوا منها فناً جعلنا نقف موقف الاجلال إزاء هذا الفنّ العالى المجسّم ، حتى إنهم صوّروا تسلسل المياه مما لا ينقصه إلاّ الخرير حتى تكون طبيعة ثانية من عمل المرء بجانب الطبيعة التى أوجدها الله

وقد يظهر لنا من هذه الكلمة السالفة أن الفن الفارسى كان صورة ثانية للفن الصينى ، أو هو فن صينىٌ رسمته ريشة فارسية ، ولكن الحقيقة هى أنه بالرغم من تأثره الى حدّ ما بالرسم الصينى فقد ظل محتفظاً بشخصيته وروحه وطبيعته الفارسية ، ولا يشين الفن الايرانى[1] أن يكون قد أجلّ الفن الصينى ؛ ومهما يكن الأمر فهناك فروق تظهر جلية للباحث المدقق ، حين تعرض عليه صورتان لمنظر واحد أولاهما لمصور صينى والأخرى لفارسى ؛ ونحن حين نستعرض صورتين لمنظر من مناظر الطبيعة مثلاً ، تبارت فى إحداها ريشة صينية وفى الأخرى فارسية ، فاننا نلاحظ فى الأولى التحرر من القيود الطبيعية وعدم التزام وحدة معينة ، بل نرى كيف يُخضعُ الفنّانُ الطبيعة لريشته ، بينما نلمس تناسق الأجزاء وترتيب بعضها بالنسبة للبعض الآخر فى صورة الفنان الفارسى ، وربما سأل السامع نفسه إزاء هذا عن العلة أو العلل الحقيقية والمباشرة أو غير المباشرة التى أدت الى افتراقهما بعضهما عن بعض بعد أن اتحدا فى الفكرة ، أهى الخيال ؟ أم الاحساس ؟ أم طبيعة كلّ منهما ؟ وقد يكون ذلك أحد هذه الأسئلة ، وقد تكون جميعها متحدة ، ولكن هناك أمراً لا بد منه ، ولابد أن نذكره إذا أردنا إجابة شافية توصلنا أو تقربنا الى بغيتنا ، ذلك أن استيعاب الفنان الايرانى للمسافات لم يكن كاستيعاب الصينى لها واهتمامه بها ، فبينما نجد عنـد الأخير الطلاقة الفنية ، والاحساس بالحرية ، إذا بنا نجد الفنان الفارسى يحدد قبل البدء ، ويرسم لريشته محيطاً لا تتعداه ، ومجالاً لا تخرج عنه بحال من الأحوال

وصفة ثانية كان يمتاز بها الفنان الفارسى على وجه العموم ، تلك هى أنه لم يكن ليشرد بريشته كثيراً ، وربما عد هذا فى نظر بعض نقاد العصر الحاضر جموداً ، وقد يخالفهم فى نظرتهم هذه كثيرون ، ولكل من الفريقين وجهة ورأى يباين رأى الفريق الآخر ، وقد يتعصبون لهذه الأفكار والآراء ، ولكنهم يتفقون فى أنه عمل رائع جدير بالاعجاب ، وسواء أكان الحق فى جانب هذا أم ذاك ، فذلك أمر مرجعه الى الذوق الفنى والشـعور المرهف الذى يستشف الحقيقة خلال الطلاسم ، ويتلمس الشعلة من بين أسداف الظلام ، ويتعرف الصواب والحق مهما تكالبت أسباب الباطل ، ويستخرجه كما يستخرج التبر من الثرى نقياً

ولعل أقرب الأمثلة على هذه الصّفة التى أشرنا إليها آنفاً : أعمال (بهزاد) وهو أكبر فنّان فارسى تبوّأ ذروة المجد من رسومه الفنّية ، وكان ممتازاً فى إخراجها ، قوىّ الافصاح عن مقصوده ، ولكنه بالرغم من هذا المجد التالد والفنّ الخالد ، فاننا لا نجده قد قام بأيّة ثورة على هذه القيود — كما يسميها البعض — ولم يحاول أن ينتزع نفسه من ربقة التقاليد وترسم الآثار ، ولم نشهد له محاولة ولو ساذجة تجعلنا نقول إنّ هناك تباشير تطوّر أو حركة تجديدية ضد ما تآلفوا عليه ، بل رأيناه وخلفه يسيرون على منهج واحد ، كأنما استسهلوا هذه الطريق المعبّدة ، ولكنهم على أى حال ، وإن كانوا قد انصرفوا عن هذا الطريق ، إلاّ أنهم جميعاً كرّسوا جهودهم وصرفوا قواهم فى إبداع آيات خالدات فى الفنّ ، تشهد لهم بالعبقرية ، وحسبهم فخراً أن يهتمّ المتحف البريطانى فى انكلترا بلوحات الفنّانين قاسم على والسعدى وغيرهما من أقطاب الفنّ الفارسى

وعلى العموم يمكننا أن نقول إن الفن الفارسى فن لا يكتفى بالنظرة الواحدة للحكم عليه ففى ذلك شىء كبير من الاستبداد ، وهو فنٌّ عالىٌ يشهد للفرس بالدقة والبراعة

تلخيص وترجمة

حسن محمد محمود

(١) كلة إيرانى هنا تعادل لفظة « فارسى » وقد طالعنا فصلا قيما فى مجلة (Young Asia) لأديب فارسى أثبت فيه أن اللفظ الأول هو الأصح وعلى كل فقد استعملنا اللفظين لمعنى واحد تحاشيا من التكرار